حكمتي

للاستاذ عبد الفتاح الديدي

لكل إنسان حكمته الخاصة التي ترشده في حياته وتنير له سواء السبيل ، ولكل فرد من الأفراد المثقفين نوع من الإيمان وضرب من ضروب الاعتقاد الذي رسخ في ذهنه ، وانطوى عليه باطنه ، واطمأنت إليه نفسه . وإذا قلت إن كل إنسان له حكمته فإنما أريد بذلك أن أتحاشى الكلام فيما يسمونه بالفلسفة الخاصة لدى كل واحد من أبناء آدم حتى ولو كان من رجال الشارع ، إذ لا يوافق الكثيرون على الزعم القائل بأن كل واحد له فلسفته ، فاذا جئت الآن لأقول عن كل واحد من الناس إن له حكمة يستوحيها فلا خطأ في كلامي ولا جناح علي ، لأن الحكمة أخف بكثير من الفلسفة وأقرب إلى قلوب العامة وأشد اتصالاً بالحياة اليومية وتنتج في العقول بسبب الخبرة التي يجدها الشخص والتجارب التي يمر بها أثناء معاشه فوق ظهر الأرض .

وأنا شخصياً لي حكمتي ، أستوحيها في الظل وأتملاها في النور وأستأنس بها من وحشة الليل وأمشي في الحياة بهديها ورضاها ، وهي حكمة غريبة عن كل هذه الأفكار والمشاعر التي عهدناها حتى الآن ، هي شيء من الواقع قبل أن تكون لوناً من الخيال ؛ وهي صورة من الحياة قبل أن تكون أملاً في الحياة ، وضمتها في صدري قبل أن أمر بها على خاطري ، وطويتها من قلبي ووجداني حتى إذا ما تفتح عليها العقل ، ونبض بذكرها الفكر ، عاشت مجنحة ولكن في اطمئنان ، ومضت قلقة ولكن في وثوق ، وانطلقت هي باحثة عن الأوضاع المستقيمة بين صرامة المنطق وغواية العاطفة .

هي حكمة أحياها بنفسي ولا أقتصر على التفكير فيها بالعقل ، وأضمها إلى صدري دون أن أطفىء حرارتها بالتشريح والتفسير ، وأتقبلها باسم الثغر وامي الفؤاد مستيقظ الضمير ، ومن أجل هذا لا أرضى بها البديل ، وإن جل البديل ، ولا أتحول عنها إلى سواها مهما تكاثرت من أمامي خطي السير ومهما تطورت في عقلي أساليب الفكر والبحث . ولا أحب أن أضعها موضع التقديس ، فلا أتأملها وأنظر في أمرها ، ولا أرضى أن أخلطها بمعاش إلى الحد الذي تصير فيه محلا للابتذال . هي قدسية في نورها أرضية في صورتها ، ملائكية في سحرها طبيعية في هواها ، إن أنس كل شيء فلن أنساها وإذا تسربلت بالهم فهي وحدها سبيل الهداية والرشاد .

فأنا أجري على نفسي قواعد حكمتي وأخطو في حياتي بما تمليه علي من الضرورة والحتم ، ولذلك جاءت حكمتي بنتاً للواقع والظروف وبناء من أبنيه الزمن والأيام ، بل لعل ذلك هو السبب في أنها قد جرت في دمي ، ونبضت دقات قلبها في عروقي ، واهتز لها خاطري واستبشر بها حياتي . عشت منها كما عشت لها واستضأت بنورها في الوقت الذي غذيتها فيه بنار قلبي وثورة روحي ، فأحببتها حب العاشق الوله للحبيبة الغالية ، أو حب الزاهد المتعبد لجلالة الرحمن . أستنشق من عبيرها خطوط سيري أثناء التقدم والتصعيد في الجبال الشامخة ، وأتغذى من هالتها في خاطري أثناء جوعي وحرماني إبان الكفاح والتشريد ، وبعبارة صريحة موجزة هي كل شيء في ، وكل عمل يصدر مني ، وكل فكرة تخطر على بالي .

ولذلك أحرص أشد الحرص على ألا أدعها تطير من يدي ولا أتركها بين براثن المقادير من غير أن أرعاها وأتعهدها ، فهي تحيا بي كما أحيا بها ، وهي جزء مني أشعر بامتلاكي لها وسيطرتي عليها ، أتنفس من شذاها وأستقي من ضروعها وأعتصر ساعاتي كلها حتى تخلص لي فيها وأفرغ لها منها . وهي عادية جداً بحيث تخطر على بال الفلاسفة وغير الفلاسفة وبحيث تعرض للمثقفين والعظماء سواء بسواء ، ولكنني أخصها بنوع من الاحترام والتقديس الذي يجعلها في خاطري ذات مكانة ، ويضعها بين مراتب اعتقادي في أولى الصفوف ، هذا فضلا عن أنني خبرتها فلم تخيب لي أملا ، وامتحنتها فلم تفسد علي رجاء ، واعتمدت عليها فلم تضيع لي أمنية . إنها مريحة لي كإنسان فاشل يحتاج إلى العزاء والرثاء ، ومهبطة من غروري عند الكسب والنصر ، فتنفع عند الشدة والرخاء معاً ، وتدلني على الوضع الذي يلزمني وعلى الظروف التي تلائمني وعلى المكان الذي يناسبني ، فأمضي إليه غير حاسب حساباً ودون ما أضع أمام عيني اعتباراً .

وأنت تعلم أن رأي الإنسان جزء من كيانه العام عند التحدث

وعند إتيان الأفعال ، بل يمكننا القول بأن الرأى فى دماغ الإنسان بمثابة عضو كامل فى تكوينه الجسمى وله من التأثير مثل ما لبقية أجزاء البدن ، ولذلك أثور عند سماع الرأى المضاد كما أفعل تماماً عند ما تلدغنى الحشرة السامة فى بعض جسمى ، ولعلى أنفعل من الوقوف على الرأى المخالف لرأيى أكثر من انفعالى للنكبة الهابطة والمصيبة النازلة ، ويصعب على أن أحول وأبدل فى آرائى وأن أكيفها حسب الظروف . فالرأى من دماغ الإنسان كالساعد فى جسم الإنسان يستحيل ألا يؤثر فى ولا يمكن الرضا عن إيذائه وإيقاع الضر به ، وفى الوقت نفسه يصعب على أن أغير من شكله أو أبدل فى منظره ، والساعد ساعد إلى الأبد ولا يمكن أن يأتى عليه يوم يصير فيه ساقا أو استغنى فيه عن خدماته فأبتره بتراً ، كذلك فى الرأى الذى أدين به والفكرة التى أعتنقها والحكمة التى ينطوى عليها بالى ، فهى مشدودة إلى كيانى شداً وهى مرتبطة بى ارتباطاً لا ينفع معه التقطيع والتجزىء والإبعاد .

وأنا أعلم أنه لا يليق بالفكر إطلاقاً أن يكون على هذا النحو من الجمود الذى أصوره فى الفقرة السابقة ، وأدرك تماماً مقدار ما ينبغى أن يكون عليه الانسان المثقف من المرونة فى آرائه بإزاء الأحداث ، وأنا واثق بعد ذلك من أن الانسان يرتقى فى تكوينه ونشاطه العقلى بارتقاء ملكته فى الانتقال من رأى إلى رأى وبمقدرته على التلون فى فكره كلما كان ذلك لازماً . ولكن ما أعتقده وأومن به شىء وما هو واقع بالفعل شىء آخر ، فما لا شك فيه أن الانسان يجد الصعوبة فى محاولته التنازل عما سبق أن آمن به وأعتقد فيه وتحمس له وأنه من الضرورى أن تتوفر لديه كمية كبيرة من الطاقة النفسية والمجهود السيكاوجى حتى يتغلب على حنانه بالنسبة إلى تفكيره القديم وحبه للرأى السابق وتشيعه المبدأ القبلى .

فالرأى الذى يدين به الانسان ليس مجرد خاطر فى بال أو بادرة فى الدماغ وإنما هو دم يسرى فى الكيان بأجمعه حتى ليصير بعض الأيام جزءاً من الكل وبعضاً من المجموع . واخطر شىء هو ألا نرعى آراء الناس ومعتقدات الجماعة أية أهمية أو أن ننظر إليها نظرة عادية بسيطة ، إنها أهم من العناية بالصحة وأوقع فى النفس من التكوين الظاهرى ، ومن هنا نقول إن كل احتقار يصدره الفيلسوف أو المفكر للآراء الجماعية مصنوع ومفتعل بناء على ما نراه بالعين أو نلمسه باليدين من التأثير الواقع فى حياة الناس ونتيجة للانقلابات الباطنية داخل الفرد ذاته ، فالحياة العامة إنما هى نتيجة حتمية لما تكنه النفوس على صنوفها من الايمان والتقدير ، بل إن الرأى ليؤدى إلى مظاهر عديدة من ناحية العلاقات بين الأفراد ، فهذا يقتل ذاك الإيمان فى قلبه بالخيانة وهذا يسفك دم ذاك لأنه اعتدى على عقيدته فى الله أو سب إيمانه بالقبيلة والأسرة أو لمن إنساناً من ذوى قرباه وذوى حماه .

فأفعالنا فى الخارج إنما تنتج عن اعتقاد فى الداخل أو عن الايمان الباطن ، وإذا كنت مهما بحكمتى إلى هذا الحد فلا أنى أعلم مقدار تأثيرها فى كيانى ومدى سيطرتها على أعمالى . وأرى لزاما على كل إنسان أن يلائم بين نفسه وبين البيئة التى يحيا فيها عن طريق الحكمة التى يعتنقها والفكرة التى يغرسها فى عقله غرساً . كل فرد منا يعنى عناية خاصة بغذائه وملبسه وعلمتنا المدنية ضروبا من الفن فى الأكل وعودتنا طرائق شتى فى الكساء . ومن ثم كانت حياتنا فى مظاهرها المختلفة ناشئة عن أذواقنا المتأثرة بالضرورات والبدع الجديدة ، ولكننا لم نستطع أن نستفيد من الاتجاهات الفكرية العامة ولم نقو على تأسيس عقلياتنا تأسيساً فنياً ومن هنا ترانا مسرعين فى كل ما يهمنا أمره من ظاهرات المجتمع ومتقدمين تقدماً مادياً ملموساً فى كل منحى من مناحى العيش ؛ أما فى العمل الذى ينشد خلق المواطن الصالح وإيجاد الانسان المتمدن من ناحية تفكيره وثقافته وذوقه فلا نزال فى الحضيض أين منا الذى يعنى بقلبه وعقله كما يعنى بصنوف الطعام التى يحشو بها جوفه وأين منا المتأنق فى قراءته بجانب تأنقه فى اللبس والهندام ، إننا أحوج ما نكون إلى روح عامة تهزنا من الباطن قبل أن تبدل فى الشيات الظاهرة وتعمق الأحساس والذوق قبل أن تجمل الصور الشكلية فى حياتنا .

لقد آن الأوان كيما نعنى بآرائنا ومعتقداتنا الخاصة وكيما نفرد لحكمتنا قسطا من العناية والرعاية . ويكفى أن نعرف أننا نعيش بالأفكار والحكمة مثلما نعيش بالغذاء والكساء حتى نبذل من لدنا كل ما نملك من أجل اختيار الرأى الذى نعلاً به رؤوسنا والخاطر الذى يجول بأذهاننا . ولابد ، منذ هذه الساعة التى نحدد فيها مستقبل الأمة عن طريق ما نصنعه بأيدينا من الفعال ، أن

تهتم اهتماماً خاصاً بالفكرة والحكمة الفرديتين بوصفهما منبعا لما تأتيه من الفعال ومصدراً لكل ما يخرج إلى العالم الظاهرى من الحركات .

ومن مظاهر الاهتمام والعناية بالحكمة الفردية لدى كل أحد أن يباعد بين نفسه وبين البواعث التى يرى فيها ضررا برأيه والمؤثرات التى يحسبها مودية بمعتقده ، فلا يجالس إلا من يجد فيهم غذاء لروحه ويلمس عندهم متعة لقلبه ووجدانه ، ولا يخاطب غير أولئك الذين يرتفعون به ويضيفون إليه . ولاشك أن التجربة لمظاهر الحياة المختلفة على قدر كبير من الخطورة فى التأثير الفردى ، ولكن الذى لاشك فيه أيضا هو أن مظاهر الحسن فى الحياة أندر من مظاهر الدمامة ، وأن الشعور بالقوة والجمال أقل من الإحساس بالتفاهة والاعتياد ، وأن ما يلزم الإنسان فى حالة تصديه لما يشيع طموحه من الروائع أنفع للانسانية من تلك العواطف التى تقوى على مقابلة الابتذال والتطفل ، والتى تستطيع أن تنفذ خلال الظروف العملية والحالات الشائهة . فحاجتنا إذن إلى العاطفة التى تصحب إحساسنا بالنعم الجمالية ، وتصرفنا عن منغصات الواقع المبتذل أهم فى الآونة الحاضرة من المشاعر التى تلابس فى نفوسنا كل خطورة نمر بها وكل تجربة ساقطة نتردى فيها . ولا يأتى هذا من اعتقادنا فى الجانب الخيرى الذى يسمى بعضنا من أجله فى الحياة ، وإنما لأهمية تعمق الإحساس لدى الأفراد ، ولضرورة العناية بالأذواق ، وللزوم النواحى الجمالية فى معاشنا . فما يقوله الشبان الذين يريدون الإقبال على كل تجربة مهما كانت تفاهتها ومهما كان ابتذالها ورخصها من أجل أن يتبينوا بأنفسهم مواطىء الشر فلا يقربونها وأن يحسوا بلذة الخير فينشدونه ، لا يحقق شيئا ولا يؤدى إلى نتيجة حقة ما دمنا حتى اليوم لم نقم شعورا جماليا ولم نؤسس ذوقا فاهما ولم نبن روحا متوثبة لدى الأفراد . فلننشىء أولا مظاهر الجمال ودلائل الروعة والبهاء ، حتى إذا جاء نصر الشيطان كنا على أهبة للقائه وكنا على استعداد لأن نرحب به ، فيقيم بيننا ما تيسرت له الاقامة وينصرف عندما يشعر بأنه لم يعد عن التصرف بعد .

ليس هذا هو كل شىء فى الأمر ، وإنما هناك شرط آخر لتكوين الحكمة الفردية وأعنى به أن تكون لدى الناس مقدرة على التمييز المستقل بحيث يختار كل واحد لنفسه ما يهمه أو ما يلائمه بغير ما إملاء ولا سيطرة . فأهم ما تمتاز به حكمتى تلك التى حدثتك عنها هو أننى قد انتقيتها انتقاء وفضلتها تفضيلا ذاتيا خالصاً . وهاهنا أيضا لابد من الاشارة إلى ضرورة التحصيل والتتلمذ ، ومن تؤكيد أهمية الأخذ عن الغير فى كل مراحل الحياة بلا اختلاف . ولكن المهم — حتى عند التأثر بالآخرين فى الرأى والفكرة — أن يكون لدى الانسان محك يقيس إليه ومحور يدور حوله . كن تلميذا إلى الأبد ، فهذا يفيدك ولا يجنى عليك إذا لم يعد عليك بأخصب الثمار ؛ ولكن لا تكن فاقداً للتمييز فيما تحصله ، ولا تجن بعينيك مقفلتين . وبذلك تمتزج فى قلبك عوامل الحلب والايجاب ، وتتمخض روحك بمضى الأيام عن حكمة صائبة فريدة . ولا تريد بالحكمة الصائبة حكمة صحيحة على طول الخط ، وإنما نقصد منها أن يكون رأى الانسان مناسبا للمقام ملائما للوضع مبلغا إلى الهدف . أما بالفريدة فنعنى أنها تكون خاصة به دون سواه من عباد الله ، فلا يشاركه فيها أحد ولا يقاسمه اياها إنسان .

والحق أنه من الضرورى ألا تكون المبادىء والآراء أبدية أزلية لا يصيبها الكسر والتغير ، لأن العقلية المتفتحة والذهن المستنير لا ينقفل أمام شىء كما أن النفسية النشيطة تستطيع أن تفرز فى كل مناسبة من الطاقة ما يمهد للهزة الباطنية التى تساعد على التحول من رأى إلى رأى والانتقال من حكمة إلى حكمة . فأهم ما تتصف به الحكمة الشخصية هو المرونة بإزاء المظاهر الحيوية . وظاهرة التكيف كما نعلم هى أرفع صفات الانسان وأخطر المظاهر البشرية ومن هنا حاول العلماء المحدثون أن يستفيدوا منها كما ينبغى . ولا يتعارض هذا مع قولى قبل الآن من أن حكمتى لا تتبدل ولا تتحول . فهى فعلا كذلك من ناحية الظاهر أما المضمون أو المحتوى فهو متقلب فائر مع تقلبات الزمن وفورة الأحداث .

وتلاحظ حتى الآن أننى لم أشرح فكرة معينة تحتويها وتتركب منها حكمتى ولم أحاول أن أقوم بعرض جملة من الأنظار التى أعتنقها وأدين بها . وقد عنيت أن أنتهى على هذه الصورة لسببين : أولهما ما قلته لك من أن شرط الحكمة الأصيل هو ألا تكون محلا للتأثر وأن تكون ناتجة عن ظروف صاحبها نفسه